

في الأدب المقارن

الحكمة

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ غفرى أبو السعود

القصص ما يجري على ألسنة الحيوان ، ويقوم الأسد فيها بدور السلطان ويلعب الثعلب دور المكر والاحتيال ، ويمثل الذئب دور الغدر والافتئات ، وقد كان للأمم القديمة كالمصريين والفرس والهنود ، من كل هذه الضروب حظ وفير ، وفيها يبسط الحكماء المجربون لأبناء جلدتهم ثمار تجاربهم ، ويحضون على حسن المعاملة ويدعون إلى الفضيلة .

والشرق ، مهد المدنات القديمة والامبراطوريات العظيمة ، والملكيات المطلقة ذات الحول والآهة والبذخ ، والموارد الواسعة والكنوز الطائلة ، هو مهد الحكمة ومطلع الحكماء والأنبياء ، فيه تجلى طابع الأشياء على جهارتها ، ويتجاور البذخ المفرط والبؤس المرمر ، وتتابع السعود والنحوس ، وتتقلب الأيام والدولات وتعقب عصور الرخاء والازدهار عهود الشدائد والادبار ، ومن كل ذلك تستخلص عبر الحياة وعظائنها ، ويتجلى لذوى النفوس العالية غرورها وبهارجها ، وتنصرف همه الحكماء والفضلاء إلى هداية مواطنيهم إلى سبيل الخير والسلامة وتلقينهم كيف يعيشون في أمن من جور الفاشمين وبطش الأقدار ويسعون جدهم لتخفيف ما حولهم من آثار البؤس والبلاء ، وإصلاح ما يرون من أسباب القوضى والفساد ، وهكذا كان يظهر المصلحون والأنبياء بين اليهود والهنود وغيرهم من أمم الشرق ، بين الفترة والفترة .

وللحكمة الصادقة المصوغة في اللفظ البليغ المحكم مكانها في أدب كل لغة : ففي كل أدب ما لا يعد من الحكم المتواترة يقتبسها الأدباء في مواطنها ، وقد نسيت أسماء قائلها وضاعت نسبتها وصارت من تراث الأدب المشاع ، وفيه كذلك ما لا يعد من آثار الشعراء والكتاب التي أساسها الحكمة وقوامها خلاصات التجارب التي عركتهم ؛ وفي الأدبين العربي والانجليزي تراث حافل من الحكم والأمثال ، وفي كل منهما أدباء اشتهروا خاصة بصوغ الحكم وجرت آثارهم على الأفلام والأقواء ، لما تمتاز به من صدق النظرة وشمول الفكرة وإيجاز اللفظ .

ففي الانجليزية اشتهر شكسبير أولاً وبوب ثانياً بروائع حكمهما . وسارت كثير من آياتهما مسير الأمثال ، لما امتاز به كلاهما من التمكن من اللغة وبلاغة الأداء ووجازة التعبير ، رغم اختلافهما فيما عدا ذلك من نظرة إلى الحياة ومذهب في الفن ؛ وندر من كبار أدباء الانجليزية من لم يسر له مثل أو أكثر فيما توفر عليه من موضوع كالطبيعة والجمال والاجتماع والمرأة وهلم جرا ومن الانجيل سرت في اللغة الانجليزية المكتوبة والمتكلمة أمثال .

يولد المرء جاهلاً ثم لا تزال التجارب تبصره بمقائق الحياة ولا يزال الدهر يعلمه ويؤدبه ، ولا يزال هو يثاقب فكاهه ، يتعظ بماضيه وينتفع بمشاهداته ، ويصوغ من جزئيات التجارب التي يمر بها كليات يلخص فيها نواميس الحياة وطباع الأشياء ، التي يجدر بالعاقل أن يسايرها ويختال لها ، لا أن يصادمها ويجري على غير سننها ، وتلك هي الحكم التي هي لباب التجارب وثمار المعرفة ، والتي يقتبط الأديب أي اغتباط حين يستخلص عصارتها من مرير الشدائد وعصيب الأزمان ، ويتجلى له ضياؤها بعد أن تنقشع غيوم المطامع وعواصف المخاوف ، ويتوارثها الناس جيلاً بعد جيل ، وتشكل مع اختلاف بيئاتهم وتقاليدهم ، ويشدو بها الصغار وهم ناشئون ولا يعرف صدقها إلا الكبار ، بعد أن يخوضوا أتون التجارب الذي ينضج النفوس

فالحكمة خلاصة التجربة العملية ، ولا تقرباً في الكتب ولا تؤخذ عن المؤدبين . ومن ثم يستوى فيها الخاصة المثقفون والعامه الأميون ، إذ كان كلاهما يستقي من معين الحياة المشهود ؛ وتذيع بين العامة أمثال وحكم هي غاية في الصدق ونفاذ النظرة وبلاغة التعبير . وقد بطابق بعضها أمثال الخاصة والحكماء في كتبهم ؛ وتدل تلك الحكم السائرة بين الشعب على الكثير من أخلاقه وأعماله ، من سعى وتوان ، ووقار واستتار ، وامعان في الحروب واستراحة إلى السلم والدعة ، ومن ثم نرى كثيراً من الأمثال المتخلفة عن جيل الانحطاط الماضى ، رغم صدقها وعمقها مصوغة في أبداً لفظ وأخش صورة ، ونرى كثيراً منها يحث على الفناعة والتواكل والقعود .

ومن الحكم ما ترسل موجزة مستقلة كأنها القضايا المنطقية مبدوءة ببعض حروف الشرط أو أسماء ، ومنها ما تصاغ في قصة بحكمة ذات مغزى ، ومن تلك القصص ما ينسب إلى حكم من الأقدمين كلفان ، أو إلى شخص خيالي مثل جحا الذي صاغ العامة خيوله قصصاً بالغة غاية الحكمة والمثمة والفكاهة ، ومن تلك

سمع دالة عمر بن أبي ربيعة التي يقول منها : « إنما العاجز من لا يستبد » ، فقال : « ما زال هذا الفتي يهذي حتى قال الشعر » ، فهو لم يحفل بكل ما قاله الفتي في التشبيب ، حتى ضرب على وتر الحكمة فاستثار إعجابه .

وأدب الجاهلية وصدر الاسلام حافل بتلك الحكم البليغة المشتعلة على تجارب قائلها من سادة القبائل وأشرافها ، الجامعة لظراتهم في الحياة وخطتهم وسنتهم فيها ، وتمدحهم بما رسموه لأنفسهم من مناهج وما أخذوها به من فضائل ، وهذا الباب من أكرم أبواب الادب العربي وأدعاها إلى الإعجاب ، ومن أجله كان العرب في تلك المهود يغالون بالشعر وينشثون أبناءهم على هدايته ، وكانوا يسمون هذا الباب من الشعر بالادب ، لأن حفظ آثاره والتأمل بها يؤدبان النفس ويهذبان الخلق ، وذلك هو الاسم الذي أطلقه أبو تمام في حماسه على ذلك الضرب من القول الشامل للحكمة والتمدح بالفضيلة . وقد اتسع معنى هذا اللفظ فبعد أن كان اسم جزء صار اسم كل وأطلق على الشعر جميعه والنثر معاً . وليس شك في أن هذا التطور الطبيعي البسيط هو منشأ كلمة أدب اللغة ، وإن يكن بعض المستشرقين قد تخدلق وزعم أنها مقلوبة عن كلمة دأب ، فذلك من قبيل النظريات المحضنة التي لا تبلغ مبلغ اليقين أبداً ؛ وليست إلا من قبيل النظر الفعلي والتظاهر بالتعمق في البحث ، وإن لم يجد ذلك العلم قليلاً ، ولم يدرك يوماً منزلة الاقتناع .

كانت الحكمة من أظهر أبواب الادب في الجاهلية وصدر الاسلام ، وكان من أقطابها في الجاهلية من ذكر ، وفي الاسلام الامام علي والأحنف بن قيس وكثير من الصحابة ، وبظهور الاسلام ثم توحد الدولة زاد العرب كفاً بالحكمة وزاد الداعي إليها أهمية ، فقد جاء القرآن الكريم والحديث حافلين بروائع الحكم وجوامع الكلم ، التي أربت على الغاية من البلاغة والسمو ، وحشا على طلب الحكمة التي هي ضالة المؤمن ، وقد ظل الكتاب والحديث دائماً نموذج الأدباء ومستقاهم ؛ فلما فرضت الملكية المطلقة سلطتها كاملة ، وأخرست الأفواه وأسكتت النقد ، عادلة حيناً وجائرة أحياناً ، وجد الناس في الحكمة الشاملة المعممة سلوة للنفس المقهورة ، وعزاء عن المآرب المحظورة ، وثقيفاً عن المطامع المستورة ، واتقاء لشبهات السلطان ، فأجريت الأمثال والمواعظ على السنة السلف الصالح ، وملوك الأمم الغابرة وحكائمتها وفلاسفتها ، ووضع على أفواه الحيوان والارواح ، وأرسلت شعراً ونثراً ، وترجمت عن اللغات ، وكان من ذلك مترجمات ابن المقفع .

وحكم عديدة ، لا تزال تحمل طابعها الاسرائيلي وتدل باسماء أعلامها ومواطنها على نشأتها الشرقية ؛ وسرت في الانجليزية كذلك أمثال عديدة من الاغريقية واللاتينية يترجمها الادباء إذا استعملوها وقد يثبتونها في لغتها الأصلية .

يبد أن ذلك هو كل ما هنالك ، والحكمة في الانجليزية نادرة إلى حد بعيد ، وهي لم تكن من مطلوب أدبائها ولا من هم شعرائها يتوخونها عمداً ويودعونها اللفظ البليغ الموجز ، ولم يكن الايجاز من دأبهم كما كان من دأب شعراء العربية وأدبائها في أحسن آثارها وأزهر عصورها ، فالأديب الانجليزي إذا أخذ في الكتابة أرسل لحياله العنان ، وأبرز فكرته الواحدة في شتى الصور متسلسلة مستتعة غيرها من الأفكار ، أما الأديب العربي فيؤثر الايجاز البليغ ويودع المعنى الواسع الشامل البيت الموجز أو العبارة المحكمة وينتج إلى غيره ، وهذا الايجاز المشهود في جيد الشعراء الجاهلي راجع بلا شك إلى أهمية العرب وحاجتهم إلى الاستغناء بالقول الجامع ، والاجتزاء بالحكمة الشاملة ، وقد تورثت هذه الخلة من خلال الادب الجاهلي فيما تلا ذلك من عصور الادب العربي كما تورثت غيرها من خلال .

وما حجب العرب في جاهليتهم في الحكمة أخذهم بحياة الحل والترحال ، واشتغالهم أبداً بالقتال وإدراك الثارات : فتلك حياة شديدة كانت تتطلب كثيراً من العمل وقليلاً من الكلام المفيد مع قلته . وكان الانتفاع بالتجارب من أكبر أسباب النجاح فيها ، والاشتهار بالحكمة والدراية من صفات الشيوخ والرؤساء ؛ ومنهم كان كثير من لحول الشعر ورجال البيان ومصافح الخطباء كالأنوف الأودى وأكثم بن صيفي وقس بن ساعدة الأيادي . ومن ثم أثر عن الجاهليين ما لا يعد من روائع الحكم نظماً ونثراً . ومن أمثلتها خطبة قس بن ساعدة وحكم زهير بن أبي سلمى في مغلته . وقد أعجب المتأخرون من الشعراء والأدباء بهاتيك الحكم أيما إعجاب ، وشمروا عن ساعد الجد للآتيان بأمثالها ، وعدوها بحك قدرة الشاعر وبرهان الشاعرية الصادقة ، وكاد يلهمهم الاستداد في طلبها عن ابتكار شيء جديد في الشعر .

وكان العرب في الجاهلية لا يعدون الشاعر خلا حتى ينطق بالحكمة ، فما لم يأت بشيء منها فهو بعد غر لم ينضج تنور التجارب ولم تنكشف له حقائق الحياة ؛ وظل الأعشى فيما قبل مزوياً عن مرتبة الفحول ، رغم ضربه بسهم في مجالات المدح والهجوم والاعتذار ووصف الخمر ، حتى قال في مدحه سلامة ذو قاتش : « والشئ حينئذ جملًا » فرفعت هذه الجملة الموحدة إلى مصاف النابغة وامرئ القيس . وتروى حكايات كهذه عن شعراء الاسلام : فقد قيل إن جريراً

من كلام المتقدمين أكثر ذبوعا في العربية منه في الانجليزية ، والحكمة مادة جانب عظيم من كتب الأدب التي تحفل بما أثر عن الحكماء والخلفاء والفقهاء من جوامع الكلم ، وهي موضوع مطولات كثيرة كمقصورة ابن دريد ولامية ابن الوردى وأرجوزة صاحب كتاب الصادح والباغم ، وبها تمتلئ الخطب المنسوبة إلى وفود العرب إلى كسرى وإلى أهل بيت المهدي عند مشاورته لهم في حرب خراسان . وقد ألع الكتاب بنثر حكم الشعراء في رسائلهم مسجوعة منمقة ، كما ألع الشعراء بنظم الحكم السائرة وأمثال العامة ، وكان الشعراء أكثر لجوا إلى نظم الحكم وسرد العبر والاستشهاد بعظات التاريخ خاصة في قصائد الرثاء ورسائل التعزية وأشعار الشكوى والوجدانيات ؛ وكثيرا ما كانت إتساق الحكم في هيئة فصائح . ويقول ابن عبد القدوس : والنصح أغلى ما يباع ويوهب ، ومن شعر النصيحة جيمية محمد ابن بشير التي يقول منها :

قدم لرجلك قبل الخطوم وضعها فن علا زلفا عن غرة زلجا
أما الموضعات التي طرقتها الحكمة في الأدب العربي فلا تحصر ، فقد جالت في شتى نواحي الحياة : من غرور الدنيا وتقلبها ووجوب الحذر منها وتوقع زوالها ، إلى مزايا الشدائد وامتحناتها للرجال ، إلى نذرة الصديق الصدوق ، ومن شؤون الحياة اليومية إلى سياسة الدول وحكم الشعوب ، ومن آداب الحوار إلى آداب مصاحبة السلطان ؛ وكان بعض الشعراء يتوفرون على ضروب دون غيرها من الحكمة ، حسب ما توجههم اليه يثانهم ونفسياتهم ؛ فأبو العتاهية كان دائم الذكر للذات ، والمتنبي كان يشتق حكمه من حياة التناحر والمطامع والمعارك الأدبية والسياسية التي كان يحياها ، والمعري كان يستقي حكمته ويستخرج عبره من ظواهر الكون التي كان دائم الاشتغال بها ، فهذان البيتان من نظمه يحملان طابع تفكيره ولا يمكن أن ينسبا إلى سواء :

يقادر غابة الضرعام كيا ينزع ظي رمل في كناس
سجيا كلها فصدر ولؤم توارثها أناس عن أناس
فكثير من الظروف التي أحاطت بالأدب العربي في الجاهلية والإسلام كانت تدعو إلى انتشار آثار الحكمة فيه ، لجاء حافلا بها مشروء ومنظومه على متعدد الصور ومختلف الأوضاع ، ومثل هاتيك الظروف لم تصاحب الأدب الانجليزي ، ومن ثم كانت الحكمة فيه أندر كثيرا ، فلا البداوة ولا الملكية المطلقة ولا رد الفعل المنعكس من الترف المفرط ، ولا الروح الدينية المتغلغل في المجتمع ، لم يؤثر شيء من ذلك في الانجليزية تأثيره في العربية ولم يقتصر الانجليز على دراسة الفلسفة الاغريقية بل درسوا معها

وكانت الصبغة الدينية التي لازمت توطد الدولة الاسلامية وتطور المجتمع الاسلامي ، داعيا آخر إلى انتشار الحكمة في الادب ، وفي الحكمة كتب ونظم كثير من رجال الدين ، ومن آثار الحكمة التي مبعثها الشعور الديني اشعار أبي العتاهية وابن عبد القدوس والامام الشافعي ، ومما زاد هذه النزعة الدينية احتدادا ، وهذه الحكم الدينية ذبوعا ، ما كان يجاورها من مظاهر الترف المفرق وآثار اللذات والمفاسد ، فكانت تلك رد فعل لهذه ، وكان من الشعراء المفرقين في المجون والتبذل كآبي نواس وبشار ، من تعاودهم رجعات من التبصر في الحياة وغرورها ، حين تسلمهم اللذات ويرهقهم بشمها وخمارها ، فيرسلون في أشعارهم من الحكم ما قد ينسب إلى أزهد الزهاد وأحكم الحكماء . ويدخل الأدب العربي طوره الفني طلب الشعراء البراعة والتفنن بصوغ الحكم وضرب الأمثال محاكاة للأقدمين وتوليدا من معانيهم ، وكانوا يشفعون الحكمة الانسانية أحيانا بمصادقها من عالم الطبيعة والحيوان والجماد ، فإذا أرسل أبو تمام حكمة في ظهور فضل المحسود على يد الحاسد ضرب لذلك مثلا اشتعال النار فيما جاورت وإعلانها بذلك طيب عرف العود ، ويقول في موضع آخر متزعا مصداق كلامه من ظواهر الطبيعة :
ولإذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيكون بدرا كاملا
ويقول غيره :

يعيش المرء ما استجيا بخير ويبقى العود ما بقى اللحاء
واشتغل المسلمون بدراسة الفلسفة اليونانية دون الأدب اليوناني ، فتأثر أدباؤهم بتلك الدراسة ، وازداد ولعهم بالحكمة ، واتخذت حكمتهم صبغة فلسفية أقرب إلى القضايا المنطقية وأشبه بالاستقراء العلمي ، وذلك واضح في أشعار المتنبي والمعري اللذين انحرفا بذلك بعض الانحراف عن الأسلوب العربي الأصيل ، الذي يمتاز بالبلاغة والوضوح والاطلاق ، وبلغ من تأثر شعر الحكمة في العربية بروح الفلسفة اليونانية ، أن أبا علي الحائمي وضع رسالة يرد فيها أكثر حكم المتنبي إلى كلام أرسطو . وفي شعر المتنبي بلغت الحكمة العربية أوج رقيها ، أو بالأحرى بلغ الشعر العربي ذروة عظمت ، وبلغ من احتفاء الشعراء بتضمين الحكمة أشعارهم أن قبل في الموازنة بين أبي تمام والمتنبي والبحترى إن الأولين حكيمان ، والشاعر البحترى ، لكثرة ما في شعرهما من الحكم ، وأبو تمام هو القائل في ذلك الضرب من الشعر :

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم
ولولا خلل سنن الشعر ما درى بغاة العلامن أين توثى المكارم
فالولع بالحكمة ظاهر في الأدب العربي : فاقباس المأثور